الفصل الرابع

أردوغان من قاسم باشا إلى رئاسة الوزراء

من المؤكد أن رجب طيب أردوغان المولود في عام ١٩٥٤ هو الشخص المحوري في حزب العدالة والتنمية الحاكم، وهو في ذلك مثله مثل كافة زعماء الأحزاب في تركيا منذ تأسيس النظام الحزبي في البلاد خلال حقبة العشرينيات من القرن الماضي، حيث رئاسة الأحزاب تعبير جلي عن حالة رعوية بطريركية أبوية، ويختصر الكثير من الأتراك الأحزاب في أسماء زعمائها فيقال مثلاً عن حزب الطريق القويم حزب محمد أغار، وعن حزب الحركة القومية حزب دولت بهشلي، وهكذا، غير أنه من الملفت أن حزب العدالة والتنمية لا يوصف بأنه حزب أردوغان، والخروج عن القاعدة ليس بسبب دور أردوغان؛ ولكن لأن الرجل قوي، والحزب أيضًا، وهذا هو الفارق الأساسي مع الأحزاب الأخرى.

والملفت للانتباه أن شخصية أردوغان التي تتسم بالكاريزمية لم تلْغ هياكل الحزب كما حدث ويحدث مع أحزاب أخرى، غير أنه لا يمكن إنكار هيمنة الرجل على عملية صنع القرار وتشكيل هيئات الحزب، وهو رجل يتسم بالعناد، ولا يغفر لمن يتحداه، لكن هناك فرق بين الإلغاء والإضعاف، كما أن أردوغان يمارس لعبة الترغيب والترضية أولاً، ويتجنب الصدام مع من يتمردون على هيمنته ما استطاع قبل أن يجد نفسه مضطرًا لمواجهة لا بد من حسمها بكل الوسائل لصالحه.

وقد أبلغني أكثر من قيادي بارز في حزب العدالة والتنمية أن كل الأعضاء فيه يدركون أن الحزب قائم على شخصيته الكاريزمية الشعبوية القريبة للغاية من الجماهير، والتي تعتمد على مزيج من المهارة والفطرة، فهو قد يذهب لحضور جنازة قروي فقير

في قرية نائية ويواسي أهله في مصابهم، مما يخلق شعوراً بالفخر والإجلال لدى سكان القرية، وربما القرى المجاورة، ومنذ أن تولى رئاسة الوزراء في مارس عام ٢٠٠٣ وهو يحرص على الإفطار بعض أيام شهر رمضان المعظم مع أسر فقيرة بصحبة زوجته أمينة التي لها حضور وقبول واضحان في الأوساط النسائية والاجتماعية، وهو يأكل من طعام الفقراء في هذه الحالات، ويقترب بحميميته من البسطاء.

وربما يعود قبول الفقراء والبسطاء لهذه الأعمال التي قد تأخذ طابعًا إعلاميًا استعراضيًا أحيانًا، حيث يتهمه خصومه السياسيون بأنه ممثل بارع، إلى كونه بسيطًا وابنا لأسرة فقيرة في أعماقه، وهو يفتخر بذلك حيث كان والده يعمل في حفر السواحل في مدينة ريزا الواقعة على ساحل البحر الأسود في شمال شرق تركيا، وعندما كان عمره ١٣ عامًا نزح والده مع أسرته إلى إسطنبول بحثًا عن فرصة عمل أفضل لمستقبل أبنائه الخمسة، وبينهم رجب طيب، واسمه مركب مثل معظم الأتراك. وقد اضطر رجب طيب وهو في ريعان صباه أن يبيع السميط وزجاجات المياه الغازية والبطيخ، وهو لا يفتأ يذكر ذلك، وقد أكده بوضوح في مناظرة مع دينيز بايكال زعيم حزب الشعب الجمهوري الذي يعطي انطباعًا بالغرور والنسب الأرستقراطي في مواجهة بساطة أردوغان عشية إجراء انتخابات نوفمبر ٢٠٠٢.

وقد التحق أردوغان بإحدى مدارس الأئمة والخطباء في إسطنبول بعد استقرار أسرته في حي قاسم باشا الفقير في الشطر الأوروبي من المدينة التي تكاد تختصر ملامح تركيا في أزقتها وساحاتها وبيوتها وشخوصها، وخلال دراسته في مدرسة الأئمة والخطباء بدأ يتقن لعب كرة القدم بمهارة في الشوارع والنادي الصغير البائس الذي يضمه الحي، حيث كان يلعب في مركز الليبرو أو الظهير الحر، واشتهر بين أقرانه بـ «الشيخ بيكنباور» لأنه كان يشبه نجم منتخب ألمانيا الغربية سابقًا فرانز بيكنباور في أسلوب اللعب وطوله الفارع، ولا يزال الرجل يذكر رفض والده انضمامه إلى نادي فنار بخشة أحد أكبر وأعرق الأندية التركية، خشية أن تفسده الكرة وتحرمه من إكمال تعليمه، وحتى الآن لا يخفي أردوغان عشقه للكرة ولفنار بخشة تحديدًا، لكنه يحرص على مجاملة الأندية المنافسة في بلد يتنفس الكرة، وعدد من لا يحبونها يعد قليلاً للغاية بالقياس لدول أخرى كثيرة، والمثير أن الساسة ـ بل والعسكر ـ في تركيا يفصحون عن ميولهم فيما يتصل بالأندية التي يشجعونها.

وفي شهر مايو ٢٠٠٦ شارك أردوغان في مباراة للكرة بين زعماء أوروبا وأمريكا اللاتينية أقيمت في ڤيينا بمناسبة تسلم فنلندا رئاسة الاتحاد الأوروبي من النمسا، وقد أعجب الأتراك برئيس وزرائهم وهو يلعب المباراة بلياقة جيدة ويسجل هدفًا لصالح الفريق الأوروبي، وفي كل الأحوال فقد قرَّبه حب الكرة من الجماهير، وعمَّق معنى البساطة في صورته الذهنية.

ورغم معاناة أسرته ماديًا فقد حصل أردوغان على شهادة جامعية من كلية التجارة والاقتصاد في جامعة مرمرة بإسطنبول، وقد بدا وعيه السياسي يتشكل وهو طالب جامعي؛ حيث عرف بميوله الإسلامية، وقد انضم لحزب السلامة الوطني الذي أسسه أبو الأحزاب الإسلامية في تركيا نجم الدين إربكان فى سبعينيات القرن الماضي، ثم التحق بحزب الرفاه الذي شكله إربكان أيضا في حقبة الثمانينيات، وفي عام ١٩٨٥ أصبح أردوغان رئيس فرع الحزب في إسطنبول في وقت بدأت تتسع شعبية هذا الحزب، وواصل أردوغان نشاطه السياسي من خلال الرفاه على مدار ما يقرب من عشر سنوات حتى تم انتخابه رئيسًا لبلدية إسطنبول إثر فوز كبير له وللحزب في الانتخابات المحلية عام ١٩٩٤، وذاعت شهرة أردوغان كرئيس بلدية ناجح على مدى ٤ سنوات، حيث انتشل المدينة من الإفلاس، وحل الكثير من مشكلاتها مثل: انقطاع الكهرباء، والمياه، وتفشي القذارة، كما تحولت المدينة في عهده إلى ما يشبه الواحة الخضراء بسبب مشاريع التشجير الكبيرة التي نفذها في أنحائها.

ونجح أردوغان خلال فترة توليه رئاسة البلدية في تعميق صورته كنصير للفقراء والمحتاجين، حيث وفر لهم الكثير من المساعدات العينية والمادية، وقد حرص في الوقت نفسه على إبراز شخصيته كرجل متدين بشكل عميق يحرص على الصلاة في أوقاتها، ويستشهد بالقرآن والأحاديث في خطبه وكلماته، كما أبقى على مسكنه المتواضع في قاسم باشا، ورفض أن ينتقل لآخر يليق برئيس بلدية مدينة ضخمة مثل إسطنبول.

وفي عام ١٩٩٨ الذي شهد الانقلاب الأبيض من الجيش على حزب الرفاه الإسلامي وزعيمه إربكان الملقب بـ«الخوجة» أو الأستاذ، صدر حكم بسجن أردوغان بالسجن عشرة أشهر بتهمة التحريض على الكراهية الدينية وإثارة الفتنة، بعد أن ألقى

خطبة نارية في مدينة سيرت ردد فيها أبياتًا لشاعر تركيا الإسلامي محمد عاكف حيث يقول: «المساجد ثكناتنا والقباب خوذاتنا والمآذن حرابنا والمؤمنون جنودنا»، وقد أطلق سراحه بعد ٤ أشهر فقط لحسن السير والسلوك، وقد استفاد أردوغان من هذه الواقعة بإظهار نفسه كمظلوم حوكم لأسباب سياسية، ورغم أن الحكم تحول إلى أداة من جانب العلمانيين المتشددين لإعاقة مواصلته للعمل السياسي فإنه استطاع ببراعة هائلة أن يتجنبه. وعندما تم تأسيس حزب الفضيلة على أنقاض الرفاه الذي صدر حكم قضائي بحله، قاد أردوغان ومعه عبد الله جول الجناح الإصلاحي من الفضيلة الذي أصبح نواة لحزب العدالة والتنمية كما أسلفنا. ومع تشكيل هذا الحزب ازدادت شعبية أردوغان الذي يتسم بقدرات خطابية كبيرة، ويعرف كيف ينتقي الكلمات التي تمس المشاعر، وتدغدغ الهوية الإسلامية التي طالما عانت من الاضطهاد في نفوس الأتراك، كما أظهر ميلاً لنصرة المظلومين، والتعاطف الشديد مع المرضى والمعوقين منذ أن كان رئيسًا للبلدية، وهو ذو نشاط ومجهود هائل يصيب من حوله بالإرهاق.

ويذكر لأردوغان كفاحه من أجل الوصول إلى مقعد رئيس الوزراء متخطيًا عقبات قانونية وسياسية كبيرة، ولولا نجاح حزبه الكبير في الانتخابات لما تمكن من تغيير القوانين التي كانت قد حظرت عليه ممارسة السياسة، والتي منعته بالفعل من ترشيح نفسه في انتخابات نوفمبر ٢٠٠٢، وبالتالي عدم توليه منصب رئيس الوزراء بعد هذا الفوز مباشرة، حيث تم تكليف نائبه في رئاسة الحزب عبد الله جول الذي يتسم بالعقلانية والميل للهدوء بتولي المنصب، حيث وصل أردوغان إلى البرلمان إثر الانتخابات التكميلية في دائرة سيرت جنوب شرق البلاد في مارس عام ٢٠٠٣، ومن ثم حصل على منصب رئيس الوزراء بعد تنحي جول عنه.

ولا يكاد يمر يوم من دون أن يؤكد رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان أنه ابن الشعب والجماهير العريضة، وليس النخبة السياسية ذات الأبراج العاجية التي تهتم بالتنظير والجدل الذي لا يفهمه العوام، وقد اقترب أكثر من هذه الجماهير ببدء استقبال رئاسة الوزراء لشكاوى واقتراحات الأتراك عبر الخط الهاتفي المجاني الساخن رقم ١٥٠ في عام ٢٠٠٦ حيث تم تخصيص مكتب يعمل فيه العديد من الموظفين للرد على مكالمات أصحاب المشكلات، وكتابة تقارير وافية عن كل مشكلة، ورفعها للمسئولين

المختصين، على أن يتم الرد عبر موقع أنشئ خصيصا على شبكة الإنترنت للرد على كل شكوى تفصيليّا خلال أقصر مدة ممكنة، وحتى المشكلات ذات الطابع المحلي للغاية تُحال إلى من بإمكانه حلها حتى لو كان «مختاراً» في قرية جبلية نائية.

ولكي يتحقق النجاح لهذه التجربة التي تعد الأولى من نوعها في تركيا يتم تسجيل كافة المكالمات التي ترد لرئاسة الوزراء لتقويم أداء الموظفين الذين يستقبلون المكالمات الهاتفية، ومدى دقتهم في كتابة المشكلات والشكاوى وفهم أبعادها، وكذلك قدرتهم على تحمل الأسلوب الجاف، وربما العنيف من جانب بعض المواطنين الغاضبين، وقد أعلنت رئاسة الوزراء أنها ستتقبل أي نوع من الشكاوى حتى لو كانت ضد أردوغان نفسه، ورحبت بشكل خاص بالشكاوى الخاصة بانتهاكات حقوق الإنسان نظراً لخشية البعض من عواقب هذه الشكاوى إذا كشفوا عن مرتكبيها من أجهزة الأمن والشرطة بما لهم من سلطات ونفوذ في بلد توصف فيه هذه الأجهزة بأنها «الدولة العميقة» الأقوى من الدولة الحقيقية، وبأنها فوق القانون.

ومن المعروف أن أردوغان هو أكثر رؤساء الوزراء في تاريخ تركيا تنقلاً بين محافظات البلاد، حيث يحرص على مقابلة العوام والاستماع لآرائهم وهمومهم ومشاكلهم دون حواجز المنصب أو فواصل الهواجس الأمنية.

وتشير استطلاعات الرأي إلى أن حزب العدالة والتنمية الحاكم يحافظ على شعبيته بسبب وجود أردوغان على رأسه، وفي أحد هذه الاستطلاعات تبين أن ٣٩ في المائة من أنصار الحزب يؤيدونه بسبب رئاسة أردوغان له، ولعل الرجل هو المزية الرئيسة للحزب في مواجهة أحزاب المعارضة التي ترأسها شخصيات باهتة مجهولة أو مستهلكة.

ولدى أردوغان قدرة كبيرة على تغيير مواقف بنسبة ١٨٠ درجة كاملة والدفاع عن هذه المواقف في الحالتين بشكل يدهش خصومه، حدث ذلك في قضية مشروع القانون الخاص بتجريم الزنا في عام ٢٠٠٥، عندما أصر على المضي قدمًا في إقرار المشروع من البرلمان رغم رفض الجيش والمعارضة والاتحاد الأوروبي له، وعندما هدد الأخير بعدم منح موعد لبدء مفاوضات العضوية مع تركيا تراجع وسحب المشروع من البرلمان.

ولعل أبرز أخطاء أردوغان ميله إلى الهيمنة الفردية على الحزب والإمساك بكل خيوط السلطة الحزبية في يديه وهو أمر عبر عنه بعض النواب المستقيلين من الحزب في

عام ٢٠٠٥ حيث شكوا من أنهم لم تتح لهم الفرصة للتعبير عن آرائهم بشأن الكثير من قرارات الحكومة، بل إن أحدهم قال: إنه لم يسمح له حتى بمقابلة أردوغان للحديث في شئون عامة.

وفي أزمة مشروع تجريم الزنا التي نشبت في عام ٢٠٠٥ مع الاتحاد الأوروبي، ألغى أردوغان اتفاقًا أبرمه نائبه في رئاسة الحكومة والحزب عبد الله جول الذي يشغل أيضًا منصب وزير الخارجية مع بايكال زعيم حزب الشعب الجمهوري - يقضي برفع البند الخاص بتجريم زنا الأزواج من مشروع قانون العقوبات الذي كان معروضًا على البرلمان استجابة لمطالب الاتحاد الأوروبي، وكان أردوغان وقتها موجودًا خارج البلاد، وبعد أن عاد تراجع عن هذا الموقف، وقبل التخلي عن تجريم الزنا، ووقتها قيل: إن أردوغان غضب لأن جول لم يعد إليه في قراره الخاص بالاتفاق مع حزب الشعب الجمهوري رغم أنه تبنى نفس موقف جول فيما بعد.

وقبل ذلك لا يمكن نسيان أن أردوغان قاد عملية تغيير لائحة الحزب الداخلية بعد شهرين ونصف الشهر فقط من الفوز في الانتخابات البرلمانية، حيث أعطى التغيير دورًا كبيرًا لرئيسه في عملية صنع القرار والاختيارات الخاصة بالمناصب المهمة في الحزب والحكومة، وتلى ذلك إلغاء دور أفرع الحزب المحلية في عملية صنع القرار، والنتيجة هي هيمنة الرجل الواحد على الحزب، وهو ما يعني أن الحزب أصبح مماثلاً للأحزاب الأخرى فيما يتصل بهيمنة النظام الأبوي الذي قاد إلى أخطاء جسيمة في ممارساتها انطلاقًا من نظرية «السلطة المطلقة مفسدة مطلقة»، كما أن هذا الوضع يعكس عدم خروج حزب العدالة والتنمية عن الثقافة السياسية السائدة في البلاد، رغم أنه نظر إليه على أنه انقلاب صريح ضدها.

أيضًا يرى البعض أن أردوغان لم يكن حكيمًا في بعض تصرفاته التي أعطت إحساسًا بالعظمة فيما وصف بأنه «أعراض سلطانية» مثل حفل الزفاف الأسطوري الذي أقامه لابنته عام ٢٠٠٥ وتكلف مليوني دولار في بلد حوالي ثلث سكانه تحت خط الفقر أو في حذاه، فضلاً عن مسألة تلقيه وزوجته هدايا شخصية ثمينة لا تتسق مع المعايير الغربية.

يضاف إلى ذلك عدم تقبل أردوغان لنقد وسائل الإعلام؛ حيث رفع دعاوى قضائية ضد رسامي كاريكاتير صوروه في أشكال اعتبرها إهانة له؛ مما أدخله في حرب مع زملائهم، ثمة من رآها غير مبررة، وأنه كان على الرجل أن يظهر تسامحًا وتقبلاً للنقد بدلاً من إعطاء الإيحاء بأن ذاته مقدسة، وفي السياق ذاته أثارت حكومته غضب الصحفيين بتمرير مشروع قانون عقوبات الجرائم الصحفية رغم رفضهم له، واعتبار هذه العقوبات مغلظة وزائدة عن الحد، وقد اضطر في النهاية إلى اتخاذ قرار بإعادة النظر في المشروع بعدما أدرك خطورة فتح جبهة عداء مع الصحفيين في بلد يلعب الإعلام دورًا مؤثرًا في صنع أحداثه.

ويمكن النظر إلى أردوغان على أنه جزء من تجربة فريدة لحزب معظم أعضائه وقادته إسلاميون، لكنه ليس حزبًا دينيًا، وهذه هي المعادلة الصعبة التي أثبتت الأحداث أنها من الممكن أن تكون واقعية، ومهما اختلفت التقويمات فإن حزب العدالة والتنمية لا يزال يقف على أرض صلبة، حتى مع ظهور أخطاء وسلبيات لا يواريها النجاح في إدارة شئون البلاد والعباد، ولأردوغان دور كبير فى هذا الثبات والصلابة.

والمتأمل لسلوك أردوغان وأقواله في التعامل مع قضايا البلاد الداخلية والخارجية يستطيع أن يتبين بوضوح أن له منهجًا في خوض معاركه السياسية يعتمد على عنصرين أساسيين: الأول القدرة على اختيار هذه المعارك وتوقيتها والطرف المعادي له فيها، بحيث لا يسمح بأن تفرض عليه معركة لا يريدها بحكم حسابات الانتصارات والهزيمة فيها، وهو قادر على استخدام سلاح التجاهل الرهيب لتجنب مثل هذه المعركة حتى لو أصر الطرف المناوئ على دفعه لخوضها بكل السبل الممكنة، وقد يعمد هو لخلق معركة أو قضية أخرى بحيث تغطي على ما يراد له الانخراط في مواجهته.

والعنصر الثاني المكمل لذلك هو قدرته على خلق صوره إعلامية إيجابية ومن قبلها صورة ذهنية مدهشة لدى مستمعيه ومشاهديه، بغض النظر عن جوهر هذه الصورة ومدى صدقه فيما يقول أو منطقية ما يفعله وما يتبناه من مواقف، معتمدًا على فهمه الفطري لطبيعة الجماهير التركية بشكل عام، وكذلك قدراته الكاريزمية الشعبوية، والحق أن أيًا من بقية قيادات حزب العدالة والتنمية الحاكم لا يمتلك مثل هذه القدرات بمن فيهم الرجل الثاني في الحزب والحكومة عبد الله جول ورئيس البرلمان بولنت أرنج، رغم أن النخبة من المثقفين والسياسيين تبدي إعجابًا أكثر بجول الذي يعطي إيحاءات

بالصدق والعقلانية، وتمثل القيم الديمقراطية الغربية التي ينحو أردوغان بعيداً عنها في معاركه ومناوراته السياسية أحياناً، كما أن أرنج ليس له صورة البديل لأردوغان، وربما يكون هذا جزءا من أزمة الحزب الحاكم المتوارية المتمثلة في أنه يتمحور حول شخص واحد، والمثير أن الكثير من أعضاء الحزب ونوابه يرون أن الحزب هو أردوغان، وأردوغان هو الحزب، ولا يتخيلون هذا الحزب، من غيره، ويبدو أن الرجل نجح في إيجاد حالة هائلة من الاعتماد عليه في تسيير أمور الحزب، فضلاً عن فرديته في اختيار الوزراء والمرشحين للمناصب الحكومية وعضوية البرلمان، والمثير أنهم سعداء بذلك، رغم ميله إلى الدكتاتورية وأحادية الرؤية في بعض القضايا المهمة، وبالقطع لا يعني هذا الكلام أنه لا وجود للحزب إلا في شخص أردوغان، لكن ما نلفت إليه هو هذه الشخصية التي تعد أخطر تهديد لكيان الحزب على المدى المتوسط والبعيد، وخاصة أن الحزب لم يمض على تأسيسه وقت طويل.

وثمة عوامل مساعدة لعدم ظهور آثار سلبية لهذا الوضع في الفترة الماضية أولها ضعف المعارضة ومعاناتها من صراعات داخلية، وعدم قدرتها على الوصول للجماهير، فضلا عن افتقادها للشخصيات الكاريزمية على غرار أردوغان، بالإضافة إلى دعم معظم وسائل الإعلام التركية وكبار رجال الأعمال للرجل وحزبه وحكومته، دون أن يقلل ذلك من نجاحات بارزة له وحكومته على الصعيدين الداخلي والخارجي، خاصة ما يتصل بالتحسن الكبير في الاقتصاد، وبدء مفاوضات انضمام تركيا للاتحاد الأوروبي، والإصلاحات التشريعية والسياسية الضخمة في إطار مساعي التأهل لنيل عضويته.

كما لا يمكن تجاهل عامل سيطرة حزبه على أغلبية مقاعد البرلمان بحيث تبدو المعارضة عاجزة عن اتخاذ أي إجراء فاعل ضد الحكومة، ومن ثم فإن مواقفها لا تعدو أن تكون صراخاً في قاعة كبيرة مغلقة، وهي بهذا الشكل لا تستطيع أن تنحي وزيراً، أو تحاسب مسئولاً، أو تنفذ مبادرة لا يريدها الحزب الحاكم الذي تخضع تماماً لجدول أعماله في البرلمان.

والشيء المهم أن أردوغان قادر على إثارة الإعجاب بنشاطه وحيويته وقدراته القيادية، وحتى عندما يكذب ويخطئ ويقفز على ما لا يريد من القضايا والأزمات، وكذلك حينما يصطنع السلوك والكلام، ويتلبس صورة أجمل بكثير من الواقع والجوهر، بشكل حير مؤيديه قبل خصومه.